الرقم الدولي المعياري للمؤتمر (معتمد ومصنف دوليًا) ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية

خونجه صباح أحمد

حيوية البلاغة العربية وديمومتها: دراسة تأصيلية في قصيدة مزامير لسميح القاسم

ملخص البحث:

ينطلق البحث من فرضية أن البلاغة العربية، بتراثها الجمالي والتأثيري، ما زالت حيّة وقادرة على التجدد رغم التحولات، وأن القول بـ"موت البلاغة" مجرد حكم متسرع يحتاج إلى مراجعة، ويهدف البحث إلى تفنيد آراء القائلين بموت البلاغة الكلاسيكية من خلال دراسة قصيدة (*مزامير*) لسميح القاسم، بوصفها نموذجًا يجمع بين أدوات بيانية تراثية وأخرى حداثية، ويحوّل المرجعية الدينية إلى خطاب مقاوم يعكس دور البلاغة في التأثير والإقناع، ويتوزع البحث على محاور: مقدمة ثم التمهيد حول مركزية البلاغة بين الأصالة والتجدد، ثم محاور تناولتُ فيها :مفهومي الحيوية والديمومة البلاغية، وأبرز الآراء النقدية حول موت البلاغة، وتحليل مظاهرها في القصيدة، ودورها في تشكيل الوعي السياسي والهوية، ليخلص إلى أن البلاغة كيان متجدد قادر على مواكبة الخطاب الشعري المعاصر، ثم الخاتمة والنتائج.

:Research Summary

This study is based on the hypothesis that Arabic rhetoric, with its aesthetic and persuasive heritage, is still alive and capable of renewal despite transformations, and that the claim of the "death of rhetoric" is merely a hasty judgment in need of reconsideration. The research aims to refute the views that declare the death of classical rhetoric through an analysis of Samih al-Qasim's poem Psalms, as a model that combines traditional rhetorical devices with modern ones, and transforms religious reference into a resistant discourse reflecting the role of rhetoric in influence and persuasion. The study is structured around: an introduction, a preliminary discussion on the centrality of rhetoric between authenticity and renewal, then sections addressing the concepts of vitality and continuity in rhetoric, major critical views on the death of rhetoric, an analysis of its manifestations in the poem, and its role in shaping political awareness and identity. It concludes

that rhetoric is a dynamic entity capable of keeping pace with contemporary poetic discourse, followed by the conclusion .and findings

المقدمة

ينطلق هذا البحث من فرضية مركزية مفادها أنَّ البلاغة العربية، بوصفها تراثًا لغويًا وجماليًا وتأثيريًا، لم تفقد فاعليتها رغم التحولات التاريخية والسياقية، بل ظلّت حيَّة وقادرة على التجدد، ويُقصد بـ "ديمومة البلاغة" هنا استمرارها في أداء وظيفتها الأصلية في التأثير والإقناع، سواء من خلال أدواتها التقليدية أو عبر تطويع أدوات بلاغية حديثة تُستثمر في سياقات جديدة.

ويقف البحث عند إشكالية رئيسية تتمثل في التساؤل الآتي: هل حقاً بإمكاننا أن نعلن، باطمئنان، موت البلاغة التقليدية أو الكلاسيكية؟ أم أنّ هذا القول يحتاج إلى نظر وتدقيق، ففيه من ا الزلل ومبالغة القول والحكم المتسرّع غير الموضوعي ما فيه.

ويرمي هذا البحث إلى الردّ على آراء أبرز من ذهب إلى القول بموت البلاغة الكلاسيكية من الدارسين، وتفنيد أبرز حججهم بما يتّسق مع حدود البحث، عبر تقديم دراسة تأصيلية في **قصيدة مزامير لسميح القاسم**، باعتبارها نموذجًا شعريًا يُجسد حيوية البلاغة العربية في العصر الحديث، ويفتح أفقًا لإعادة قراءة هذه البلاغة لا بوصفها إرثًا ماضويًا جامدًا، بل بوصفها خطاباً حياً ومتجدّداً. فالقاسم لا يكتب فقط بلغة الشعر، بل بلغة البلاغة بوصفها فعلًا نقديًا وموقفًا إنسانيًا وسياسيًا، وتُظهر القصيدة تنوعًا بلاغيًا يجمع بين إرث بياني كلاسيكي (كالاستعارة، والسجع، والتوازي الإيقاعي، والاقتباس القرآني)، وأدوات حداثية مثل بلاغة المفارقة، والتناص الثقافي، والتكسير الدلالي، وحركة الضمائر، ما يجعلها مسرحًا حيًّا لديمومة البلاغة وتجددها، وتتحوّل المزامير من مرجعية دينية توراتية إلى نص مقاوم يعيد بناء الرمز الديني في ضوء التجربة الفلسطينية، ويؤكد حضور البلاغة بوصفها خطابًا تعبويًا لا تزيينيًا، وينقسم البحث إلى محاور تتناول:

تمهيداً بعنوان: البلاغة بين الأصالة والتجدد: مدخل إلى ديمومة وتأثير البلاغة العربية.

مفهومي الحيوية البلاغية والديمومة البلاغية: من البلاغة الكلاسيكية إلى راهن البلاغة الحديثة.

أبرز الآراء القائلة بموت البلاغة القديمة: قصور البلاغة التقليدية أثار جدلًا حول بقائها أو تجديدها.

تحليل مظاهر البلاغة في القصيدة: من الصور البيانية إلى الأدوات الخطابية الحديثة.

البلاغة بوصفها موقفًا: كيف تسهم البلاغة في تشكيل الوعي السياسي والهوية الجماعية.

وبذلك يهدف البحث إلى إبراز أنَّ البلاغة ليست ملكًا للماضي، بل كيان متحرك ينبض بالحياة، يتكيّف مع الخطاب الشعري المعاصر ويجدده، ويشكّل دعامة رئيسة تقوم عليها مختلف التوجهات الأسلوبية المعاصرة.

التمهيد

البلاغة بين الأصالة والتجدد: مدخل إلى ديمومة وتأثير البلاغة العربية

تحتل البلاغة موقعًا محوريًا في التراث العربي، لا بوصفها علمًا لغويًا فحسب، بل لأنها كانت تمثل الروح الحية للتعبير العربي، وجوهر الفصاحة التي نشأ عليها العرب قبل التدوين، فقد اقترنت البلاغة منذ البدء بالبيان القرآني، والخطاب النبوي، والشعر الجاهلي، مما أكسبها مكانة رفيعة، ليس في ميزان اللغة فحسب، بل في بناء الذوق، والتفكير، والحجاج، وتشكيل الوعي الجمالي للأمة.

ولم تكن العربية في بداياتها بحاجة إلى قواعد أو علوم مدونة، بل كانت تنساب على ألسنة العرب انسيابًا طبيعيًا، كجريان الطلاء على السطح الأملس؛ سليقة فطرية تحمل الفصاحة في مفرداتها، والبلاغة في تراكيبها، والجزالة في عباراتها، وإن كان لكلمة "دُوِّنَت" دلالة عميقة في سياق الحضارة العربية الإسلامية، فهي تشير لا إلى بداية وجود العلوم، بل إلى لحظة وعي بحفظها وتطويرها، بما يعكس أصالة هذه الحضارة وامتدادها في الفكر واللغة[1]، ولم يكن هذا التحول انعكاسًا لضعف في اللغة بقدر ما كان تعبيرًا عن الوعي الحضاري المتزايد بأهمية حفظ أدوات التأثير في القول، وتنمية الذائقة النقدية، وتطوير ملكات التعبير. ومن هنا، باتت البلاغة جزءًا لا يتجزأ من العقل العربي الإسلامي، وأحد أبرز معالم ثقافته وأدواتها في الفهم والإقناع والجمال.

ومن المهم التنبه إلى أنَّ العمل الفني لم يعد مجرّد لحظة إبداع عابرة أو تعبيرًا ذاتيًا محدودًا بزمنه، بل أصبح مرتبطًا بشروط البقاء والديمومة، وهما وجهان لفكرة الخلود الفني، فلا يكفي أن يكون الأثر جميلًا أو متقنًا من الناحية الفنية فحسب، بل لا بد أن يمتلك من الخصائص ما يؤهله للتجاوز والاستمرار، من خلال انسجامه مع الذوق العام، وقابليته للتقبل عبر الأجيال، وقدرته على التفاعل مع أذواق جماعات مختلفة[2]، ومن هنا، تغدو فكرة الديمومة في البلاغة الخلود مشروطةً بقدرة العمل على تمثيل القيم الجمالية السائدة، وبثّها في الوعي الجمعي، بحيث يتحول إلى نموذج يُعمَّم ويُتذوَّق على نطاق واسع، فيحقق بذلك حضورًا حيوياً ممتدًا يتجاوز شرطه الفني اللحظي إلى شرطه الثقافي المستمر. وهو ما حدا بنا إلى الوقوف على أبرز الآراء التي قالت بموت البلاغة التقليدية، وتفنيد أبرز مزاعم من نادوا بالاستعاضة

---

[1] الهوامش:

() البلاغة العربية والتداولية الغربية بين الثابت والمتغير "دراسة بلاغية نقدية"، شحاتة عبد الرزاق أبو شوشة، المؤتمر العلمي الدولي الخامس (مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)، جامعة الأزهر، مصر، 2023م:1673.

[2]() انظر: الديمومة في العمل الفني، طارق الشريف، مجلة الحياة التشكيلية، دمشق، ع41، 1992م: 5.

عنها بمناهج الأسلوبية، والسيميوطيقا أو (السيميائيات) والنقد الثقافي وغيرها، دون أن يمنع ذلك من الإقرار بضرورة تجديد البلاغة العربية بوصفها علماً حياً يحمل في ذاته مقومات تجدده واستمراريته.

ورغبةً في تأكيد ديمومة البلاغة العربية وحيويّتها عبر العصور، يمكن الوقوف عند قصيدة "مزامير" للشاعر الفلسطيني سميح القاسم بوصفها نموذجًا حديثًا لهذا الامتداد البلاغي الحي. والقصيدة، على الرغم من انتمائها إلى العصر الحديث، تستدعي في بنائها الإيقاعي وتراكيبها البيانية روح البلاغة العربية الكلاسيكية، وتُفعّل أدواتها التعبيرية من استعارة وتشبيه وتكرار ومفارقة، دون أن تنغلق على القوالب التقليدية.

وفي قصيدته "مزامير"، يقدّم لنا الشاعر سميح القاسم خطابًا شعريًا مشحونًا بالرمز والتكثيف، قادرًا على مخاطبة الذائقة المعاصرة، دون أن ينفصل عن الجذر البلاغي العميق الممتد من الجاهلية إلى البيان القرآني، فالبلاغة العباسية وصولًا إلى البلاغة الحديثة التي تستمر في الكشف عن جماليات التعبير وأسرار التأثير، وهو ما يظهر جليًا قصيدة "مزامير" لسميح القاسم، التي تمثل تفعيلًا حيًا للبلاغة في خطاب مقاوم حديث، يجمع بين جزالة الأسلوب وتكثيف المعنى وحضور الرمز، وهذا مما يجعل النص شاهدًا معاصرًا على استمرارية البلاغة كأداة حيوية للتأثير والتعبير.

أولاً: مفاهيم البحث:

البلاغة: جاء في اللسان (بلغ): "بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، ... وبلغت المكان بلوغا: وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه، ومنه قوله تعالى ﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ البقرة: ٢٣٤﴾ أي: قاربنه، وبلغ النّبت: انتهى"[3].

وقال الشريف الجرجاني (ت 816 هـ): "البلاغة: ملكة يقتدر بها إلى تأليف كلام بليغ، فعلم أن كل بليغ؛ كلامًا كان، أو متكلمًا، فصيح؛ لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة، وليس فصيح بليغًا، والبلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال، والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام"[4].

فالبلاغة بهذا المعنى هي القدرة على تأليف كلام قوي ومؤثر يناسب الموقف، مع مراعاة الفصاحة، بحيث تكون الكلمات واضحة وسليمة؛ وبمعنى آخر، لا يكفي أن يكون الكلام صحيحًا، بل يجب أن يكون مناسبًا للسياق.

و"البلاغة مأخوذة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغتها غيري، والمبالغة في الأمر: أن تبلغ فيه جهدك وتنتهي إلى غايته، وقد سميت البلاغة بلاغة؛ لأنها تنهي المعنى إلى

---

[3] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي (ت ٧١١هـ)، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م، مادة (بلغ): 8\ 419.

[4] التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1983م: 46.

قلب سامعه فيفهمه، ويقال بلغ الرجل بلاغة، إذا صار بليغا، ورجل بليغ: حسن الكلام، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، ويقال أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه"[5].

فالبلاغة في الكلام هي أن توصل الفكرة إلى ذهن السامع بوضوح وتأثير، بحيث يفهم المعنى تمامًا، وكأنك نقلته إلى قلبه مباشرة، وهكذا نرى أنَّ الدلالة اللغوية تتمحور حول الوصول، أو مقاربة الوصول، والانتهاء إلى الشيء والإفضاء إليه، وبهذا تكون البلاغة فنًا للتعبير عن الأفكار بشكل جميل ومؤثر، بحيث يصل المعنى إلى السامع أو القارئ بوضوح وإحساس.

وفي الاصطلاح جاء في معجم المصطلحات العربية: "هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فلا بدّ فيها من التفكير في المعاني الصادقة القيّمة القوية المبتكرة منسّقة حسنة الترتيب، مع توخّي الدقّة في انتقاء الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال من يكتب لهم أو يلقى إليهم"[6].

الديمومة: الديمومة مشتقة من كلمة المداومة، وأصلها دوم ديم: دَامَ الشيءُ يَدُوم دَوْماً، والدِّيمةُ مَطَرٌ يَدُوم يَوْمًا وَلَيْلَة أَو أَكثر، وقَالَ الأصمعيّ وَغَيره: أصل الدِّيمَةِ المطرُ الدَّائمُ مَعَ سُكُون، وقَالَ أَبُو عبيدُ: فَشَبَّهَتْ عائشةُ عملَه فِي دوامِه مَعَ الاقتصاد بِدِيمةِ الْمَطَر، وقيل ديمةٌ هَطْلَاءُ، وَجمع الدِّيمة دِيَم [7]، **وقال أحمد بن فارس (ت 395 هـ):** "(دَوَمَ) الدَّالُ وَالْوَاوُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى السُّكُونِ وَاللُّزُومِ. يُقَالُ دَامَ الشَّيْءُ يَدُومُ، إِذَا سَكَنَ"[8]، **وقال ابن منظور (ت 711 هـ):** "دَوَمَ: دامَ الشيءُ يَدُومُ ويَدامُ؛ وقَالَ كُرَاعٌ: دامَ يَدُومُ فَعِلَ يَفْعُلُ، وَلَيْسَ بقَوِيّ، دَوْماً ودَواماً ودَيْمومَةً؛ وذَهَبَ أَهل اللُّغَةِ فِي قَوْلِهِمْ دِمْتَ تَدُومُ إِلى أَنها نَادِرَةٌ كمِتَّ تَموتُ، وأَدامَهُ واسْتَدامَهُ: تأَنَّى فِيهِ، وَقِيلَ: طَلَبَ دوَامَهُ، وأَدْومَهُ كَذَلِكَ، واسْتَدَمْتُ الأَمر إِذا تأَنَّيْت فِيهِ"[9].

وهذه التعريفات جميعها تدور حول فكرة الاستمرار والثبات على حال معين لفترة طويلة دون انقطاع، فقد ارتبطت الديمومة بالمطر المستمر بهدوء لفترة طويلة، مما يجسد صورة حسية للاستمرار بلا توقف، وعند أحمد بن فارس، وُضعت الديمومة في إطار "السكون واللزوم"، وهي معانٍ تدل على الثبات المطلق والاستقرار عبر الزمن، وأمَّا ابن منظور فقد وسّع المفهوم ليشمل الاستمرارية مع إمكانية السعي للحفاظ على هذا الثبات، مثل "استدامة الشيء" أي محاولة إبقائه مستمرًا، إذًا، الديمومة تعني بقاء الشيء على حاله مع مرور الزمن، دون تغير أو انقطاع، سواء كان هذا البقاء طبيعيًا (مثل المطر)، أو مقصودًا (مثل طلب الاستدامة في عمل أو حالة معينة).

---

[5] علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، ٢٠٠٩ م: 7.

[6] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت:٤٥.

[7] ينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م: 14\147.

[8] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، مادة (دوم): 2\315.

[9] لسان العرب، ابن منظور، مادة (دوم): 12\212.

الحيوية: قال ابن منظور: "حيا: الحَيَاةُ: نَقِيضُ الْمَوْتِ، وحَيِيَ حَياةً وحَيَّ يَحْيَا ويَحَيُّ فَهُوَ حَيٌّ، وَلِلْجَمِيعِ حَيُّوا، بِالتَّشْدِيدِ، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: نقيضُ الْمَيِّتِ، وَالْجَمْعُ أَحْيَاء. والحَيُّ: كُلُّ مُتَكَلِّمٍ نَاطِقٍ. وأَحْياهُ: جَعَله حَيّاً"[10].

و"الحيوية مصدر صناعيّ من حَياة، ومقدرة الحيّ على تأدية وظيفته، ويراد بها الفاعليّة غير الاعتياديّة، نشاط وعافية"[11]، وبهذا تكون الحيوية متجذرة في مفهوم الوجود والحياة، بل تعبيرًا عن القدرة على العمل والتفاعل بشكل نشط ومؤثر، وهذا شأن العلاقة بين الحيوية والبلاغة التي يُقدَّم بها الكلام ليكون مؤثرًا وفعّالًا في نفس المتلقي، وفي علم البلاغة الحيوية تكون في التعبير نابضًا بالحياة، مليئًا بالحركة والتفاعل، بحيث ينقل الأفكار والمشاعر بوضوح وقوة، وكأن الكلمات نفسها تنبض بالحياة.

ثانياً: أبرز الآراء القائلة بموت البلاغة القديمة:

شهدت البلاغة العربية في العصر الحديث مراجعات نقدية عميقة، دفعت بعض البلاغيين إلى إعلان "موت البلاغة"، تعبيرًا عن انتهاء صلاحيتها بوصفها منهجًا تحليليًا قاصرًا عن مسايرة النصوص الحديثة والمعاصرة، ولا سيما الشعرية منها، وقد تباينت مواقف النقاد والبلاغيين بين مؤيد لهذا الطرح ورافض له أو مجدد فيه، ويرتبط هذا المفهوم بإشكالية قصور البلاغة التقليدية (خاصة في تقسيماتها: البيان، المعاني، البديع) عن تفسير جماليات النصوص الحديثة، إذ يُنظر إليها على أنها آلية شكلية لا تُلامس العمق الدلالي للنص.

يقول الدكتور صلاح فضل: "البلاغة القديمة قد تحوّلت إلى مجرد قائمة من الزينة والتجميل لا تُعبّر عن روح الإبداع" [12]، ويرى أن البلاغة العربية الكلاسيكية ماتت وظيفيًا، لأنها توقفت عند حدود الزخرفة اللفظية، ويقترح بديلًا يتمثل في "علم الأسلوب" و"بلاغة الخطاب". فنحن – بتعبيره – "ما نزال نكرر مفاهيم المجاز والكناية والمطابقة والترشيح وكأن البلاغة قد توقفت هناك، وهذا يُعد موتًا لها من حيث الوظيفة وليس من حيث الوجود" [13]

ويرى حسن بحراوي أن البلاغة العربية في مأزق تاريخي، وهي عاجزة عن مسايرة التحولات النصية الحديثة، فيشير إلى أنّ "البلاغة القديمة انتهت فعاليتها حين تحوّلت إلى جهاز تعليمي يلقّن بدلاً من أن يكتشف، وهذا هو موضع الموت الحقيقي" [14]

ويطرح عبد الله الغذامي مفهوم "البلاغة المضادة"، ويرى أن البلاغة التقليدية كانت أداة للسلطة، وليست للمعرفة أو التذوق. فيقول: "إن البلاغة التي عرفناها بلاغة سلطوية، تمجّد القول ولا تقرأ المعنى، ولهذا انتهت بانتهاء عصرها" [15]

---

[10] لسان العرب، ابن منظور، مادة (حيا): 14\211 وما بعدها.

[11] كتاب معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 2008م: 1\600.

[12] بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، 1992م: 18.

[13] بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، م. ن، ص21.

[14] بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990م:17.

[15] الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997م: 102.

، ويرى جميل حمداوي أن البلاغة العربية ماتت بفعل التكرار والانغلاق، ويقترح بلاغة جديدة متفاعلة مع الحقول المعرفية. فيقول: "موت البلاغة ليس حتميًا، ولكنه نتيجة طبيعية إذا لم تنفتح على معارف العصر" [16].

أما الدكتور عبد الله العمري فيذهب إلى أن البلاغة لم تمت موتًا كاملاً، لكنها أصبحت غير قادرة على شرح النص الحديث إلا إذا أعيد بناؤها. فيقول: "نحتاج إلى بلاغة وظيفية جديدة لا تكرّر البلاغة القديمة، بل تشتغل على النص من داخله لا من خارجه" [17]

وبصرف النظر عن النزعات المتحفزة لقتل البلاغة، فقد أُعلن مرات عديدة وفاتها طبيعياً، إذ تتبعت جين أوستن Jane Sutton في دراسة خاصة المناسبات التي أُعلنت فيها وفاة البلاغة في العصر الحديث، فبدأت تأريخها بتصريح شهير للناقد الإنجليزي آي. إيه. ريتشاردز I.A.Richards: "لقد هوت البلاغة في أعماق سحيقة، إلى حدّ يُستحسَن معه تركها تهوي لتبتلعها فوّهة النسيان بدلاً من أن نتعب أنفسنا بها" [18] ،ثمّ إعلان صموئيل يسلنج Samuel Ijsling بأنّ البلاغة "انحدرت إلى سوء السمعة"، مختتمة سردية موت علم البلاغة بعبارة صريحة لبول ريكور Paul Ricoeur يُعلن فيها أنه سيشرع في دراسة علم ميت، يعني البلاغة[19].

على خلاف ذلك يميز تيري إيغلتون Terry Eaglitin بين البلاغة بوصفها كلاماً جميلاً، والبلاغة بوصفها علماً لدراسة الكلام، وينبّأ للأولى بالموت، ويهب الثانية قبلة لحياة طويلة، ويُنذر إيغلتون بأنّ البلاغة بوصفها الكلام الجميل ربما تكون مؤذنة بالزوال، "فإنّ اللغة الموحية المكثفة المنشغلة بجمالها الخاص ربما تتلاشى في المستقبل القريب" [20] ،وخلافاً لرأي ريكور الذي يدرك البلاغة بوصفها علماً ميتاً، يصرّح إيغلتون في سياق آخر بأنه يجد في علم البلاغة البديل الأنسب للنقد الأدبي، مستنداً إلى تصور لعلم البلاغة يقرنه بدراسة أنواع الآثار التي ينتجها الخطاب، وكيفية إنتاجه لها، إذ يرى أنّ علم البلاغة عُني بدراسة كيفية بناء الخطابات على نحو مخصوص لإنتاج أثر محدد[21]، ومهما يكن فإنّ التناقض بين من ينعون في البلاغة علمها، ومن ينعون في البلاغة مادتها، غير ذي أثر كبير، فكلاهما يقدّم دعوى سهلة التفنيد.

يستند نفي موت البلاغة في الماضي، ونفي إمكان موتها في المستقبل في آن معاً، إلى تمتّعها بخصيصتين تلازمانها؛ الأولى: قدرتها السحرية على التكيف، فالبلاغة تتسع وتضيق

---

[16] بلاغة النص، جميل حمداوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2011م: 39.

[17] بلاغة الصورة الشعرية الحديثة، عبد الله العمري، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، عدد27، 2008م: 245.

[18] ينظر: Sutton, J. (1986). The Death of Rhetoric and its Rebirth in Philosophy. Rhitorica: A Journal if the Histiry if Rhitoric, Vol. 4, No. 3, PP. 203-226.

[19] م. ن: 204.

[20] ينظر: Eagleton, T. (2012). The Death if Rhetiric. Acad. Quest. 25: 546-551.

[21] ينظر: مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيجلتون، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991م:243-245.

وتغيّر وجوهها، وتنوع منهجياتها، وتطور مقارباتها طوال الوقت لتستجيب لتحديات زمنها، أما الخصيصة الثانية فهي اقتران البلاغة بما لا وجود للبشر دونه، أي العلامات اللغوية وغير اللغوية التي تُنجز الإقناع والتأثير والجمال[22]،وإذا ما تأملنا حجج نُعاة البلاغة في الدعوة إلى موتها نجدها تنحصر في الآتي:[23]

- السمعة السيئة للبلاغة بوصفها تلاعباً وخداعاً، ولعلمها بوصفه معرفة تُنجز التلاعب والخداع.

- تحولات العالم المعاصر التي تؤذن بتراجع أثر القول الجميل في الحياة، ومن ثمّ تراجع دور العلم الذي يدرس القول الجميل، أي البلاغة.

- فقدان علم البلاغة لموضوعه أو وظيفته بفضل نشوء علوم أخرى مثل الأسلوبية والسيميوطيقا والنقد الثقافي وتحليل الخطاب، وغيرها.

هذه الحجج يفنّدها واقع الحال، وضعف المقال، فالبلاغة لم تمت، بل إنها تزدهر ازدهاراً غير مسبوق في العصر الحديث غربياً وعربيا، ولعل إطلالة سريعة على التوسع في دراسة البلاغة في أقسام التواصل الأمريكي وتعدد المجلات العلمية التي تختص بنشر بحوثها، والمؤتمرات الدولية التي تُخصص لها، يبرهن بما لا يدع مجالاً للشك، على أنّ البلاغة قولاً وعلماً تزدهر[24] ،أما عربياً فإنّ إنشاء فرق بحثية تحمل اسم البلاغة، وصدور دوريات علمية حولها، وتزايد أعداد الباحثين المنشغلين بها، مشاهد لا تُخطئها العين.[25]

عموماً، يتضح من الطروحات السابقة أن "موت البلاغة" لا يعني نهايتها التامة، وإنما هو وصف لمرحلة من الجمود، تستدعي التجديد، وهذا الموت هو دعوة لإحياء البلاغة بمعايير جديدة، قادرة على التعامل مع جماليات النص الأدبي. وعليه فإنّ البلاغة لم تمت بمعناها الجوهري، لكنها تحتاج إلى إعادة تأهيل معرفي ومفاهيمي. وما يُسمى "موت البلاغة" ليس سوى نقد لتقليديتها، وتطلع إلى آفاق جديدة تحت مسمّيات كـ"بلاغة النص" أو "بلاغة الخطاب" أو "علم الأسلوب".

ثالثاً: مظاهر ديمومة البلاغة في قصيدة مزامير:

1.حضور الأدوات البلاغية الكلاسيكية:

---

[22] ينظر: البلاغة العربية الجديدة، مسارات ومقاربات، عماد عبد اللطيف، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط2، 2021م:17.

[23] ينظر: م. ن:17-18.

[24] ينظر: Stuart C. B, R. Jaskson & T. Enos. (2000). The Arrival of Rhetiric in the Twenty – first Century: The 1999 Survy of Doctoral Programs in Rhetiric, Rhetoric 18:2, 233, Review-242, w235.

[25] ينظر مثالاً: مجلة ألف: مجلة البلاغة المقارنة، تصدر عن الجامعة الأمريمية بالقاهرة منذ عام 1981م. ومجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عام 2012م، ومجلة البلاغة والنقد الأدبي، عام 2014م، وهما مجلتان تصدران عن المملكة المغربية.

تمثّل قصيدة "مزامير" لسميح القاسم نموذجًا شعريًا معاصرًا يستبطن الميراث البلاغي العربي في صوره البيانية وأدواته التعبيرية، فيعيد توظيفها في سياق مقاوم حديث، فالبلاغة في هذه القصيدة لا تظهر كأثر تقليدي، بل كطاقة حيوية تعبّر عن انفعال الشاعر ووعيه السياسي والإنساني، على الرغم من خروج أصواتٍ في العقود الأخيرة تدّعي أنَ البلاغة قد استنفدت قدراتها الإبداعية، وأصبحت مجرد مادة جامدة تُدرّس كما ورثناها عن القدماء، دون نقد أو تطوير أو إبداع جديد، وانتشرت آراء تعلن "موت البلاغة"، وتدعو إلى استبدالها بمعارف نقدية ولغوية حديثة[26]، متجاهلين أنَّ البلاغة لم تكن مجرّد زينة لفظية أو علمًا شكليًا، بل كانت وما تزال تمثل وعاءً للفكر، ووسيلة للتأثير، وآلية للتعبير عن القضايا الكبرى التي تشغل الإنسان العربي، ولعلّ ما يؤكد ديمومة البلاغة ومرونتها هو قدرتها على الاستمرار في التعبير عن المستجدات، دون أن تفقد روحها أو أدواتها، حتى في سياقات حداثية ومعاصرة، ومن هذا المنظور، تأتي قصيدة "مزامير" لسميح القاسم كنص شعري معاصر يتّكئ بوضوح على مرجعيات بلاغية عريقة، ويُفعّلها في سياق سياسي وإنساني حديث، فالقصيدة تمثل امتدادًا حيًا للبلاغة العربية، إذ تستثمر أنساقها التعبيرية وأساليبها المتوارثة لتصوغ خطابًا مقاومًا فاعلًا، يتناغم فيه التراث مع الحاضر، وينبعث فيه الصوت البلاغي القديم في مواجهة القضايا الحديثة. إن حضور البلاغة في هذا النص لا يُعد استدعاءً زخرفيًا، بل هو انخراط فاعل في مشروع شعري يُعيد للبلاغة دورها الحيوي في التشكيل والتأثير والتوجيه، مما يجعل من قصيدة مزامير مثالًا دالًا على أن البلاغة ما تزال نابضة بالحياة، قادرة على مواكبة التحولات، والتعبير عن نبض الإنسان العربي المعاصر.

-الصور البيانية:

في إطار حضور الأدوات البلاغية الكلاسيكية، تظهر جلية في تصوير الوطن والإنسان من خلال صور مركّبة؛ **فغزّة** مثلًا تصبح مطهرًا للأحزان، والأنبياء أصواتٌ تصرخ في وجه الظلم، والطيور اليتيمة تتحول إلى رموز للشعب المقهور، و"إشعياء" ليصبح نبيًّا للعدالة في وجه العنف المعاصر في استعارات تنقل معاناة الفلسطينيين بلغة تتجاوز المباشرة نحو التخييل العميق.

هناك استعارتان تعبّران عن تقديس المعاناة الوطنية وتحويل الوطن إلى كيان مطهّر بالألم، مما يمنح الحزن بعدًا روحانيًا يتجاوز الجغرافيا إلى رمز خلاصي، يقول سميح القاسم:

"من هنا
من مطهر الأحزان في ليل الجريمه
أيها العالم، تدعوك العصافير اليتيمه
من هنا من غزّة الموت،

---

[26]() ينظر: امتدادات البلاغة الجديدة في النقد المغاربي "البلاغة والحجاج عند حمادي صمود أنموذجًا"، سونة حسين، وسليم سعدلي، مجلة البدر، مج10، ع8، 2018م: 911.

ومن جينين، والقدسِ القديمه .." [27]

في المقطع استعارة قوية تمزج بين مفهوم "المطهّر" الديني ومكان الألم (غزة، جينين، القدس)، ما يحول الوطن إلى كيان يتطهّر بالحزن والمقاومة، وهو تعبير بلاغي عن قداسة المعاناة الوطنية، وفي استعارة أخرى هناك تجسيد صرخة العجز الإنساني أمام صمت العدالة الإلهية، حيث يستبدل الشاعر صورة الخلاص الإلهي بصورة حضورٍ ملبّد بالمآسي، تعبيرًا عن الغربة الروحية والخذلان، يقول سميح القاسم:

"كان في القرميد أعشاشٌ، وفي الأفق سنونو

كان في المنفى قلوب وعيونُ"[28]

هنا يستخدم الشاعر صورة "القرميد" و"السنونو" للدلالة على الدفء، الأمان، والطفولة، في مقابل ضياعها لاحقًا، فالسنونو استعارة للحرية والعودة، بينما الأعشاش ترمز إلى الاستقرار المفقود.

"يا إله المجد .. ماذا حملت؟

ناراً .. وغازاً .. ودخانا

ومجاعات .. وصلبانًا .. ويتمًا .. وهوانا !!" [29]

النداء في "يا إله المجد" يوحي بتوجه خطاب إلى مقام إلهي سامٍ، يحمل قدسية ومهابة، لكنه يتبع هذا النداء بسؤال صادم: "ماذا حملت؟"، لتأتي الإجابة على شكل صور من الألم والمعاناة: "ناراً .. وغازاً .. ودخاناً...".

هنا تتحول رمزية الحضور الإلهي، التي عادةً ما تقترن بالرحمة والعدل والخلاص، إلى استعارة مريرة ترمز إلى خذلانٍ أو صمتٍ إلهي تجاه ما يحدث من ويلات ومظالم، ورغم النبرة الغاضبة أو الساخطة، تبقى لغة الخطاب ضمن حيز الاحترام، حيث لا يتعدى الشاعر على الذات الإلهية صراحة، بل يستخدم السؤال كشكل من العتب الوجودي أو الروحي، وهو نمط مألوف في أدب المعاناة، خاصة في مواجهة الظلم، فالشاعر استحضر عناصر الصورة من (نارًا، وغازًا، ودخانًا، ومجاعات، وصلبانًا، ويتمًا، وهوانا) ليعكس صرخة الإنسان المظلوم الباحث عن عدالة غائبة.

ومن خلال هذه الصور، يبرهن الشاعر على أن الأدوات البلاغية العربية الكلاسيكية، التي طالما عُدّت حِكرًا على الشعر القديم أو البيان القرآني، ما تزال نابضة بالحياة في الخطاب الشعري الحديث، قادرة على التعبير عن القضايا المعاصرة بكثافة ودقة وجمال.

وكذا الأمر في الكناية في التعبير غير المباشر عن قضايا كبرى كقوله: **واجعلوا أبناءكم قربان آي. بي. سي.**

---

[27] ديوان سميح القاسم:194

[28] ديوان سميح القاسم:195

[29] ديوان سميح القاسم:195

كناية عن تربية الأجيال الجديدة على الثقافة الغربية والإعلام الموجّه، وكأنهم يُقدَّمون ضحية للغزو الإعلامي – في صورة دينية توراتية معكوسة (القربان).

وقوله: **"وتحت لفح الشمس .. تحت الريحِ .. كانت تتمنى"**[30]

كناية عن المعاناة اليومية للاجئ الفلسطيني، حيث يُختزل الحلم بالعودة رغم قسوة الظروف.

وقوله: **"يا إشعياءُ، الذي أغفى قرونا وقرون!**

كيف صارت هذه القرية .. صارت زانيه؟"[31]

كناية عن الخيانة السياسية والانحراف الأخلاقي لمدينة مقدسة (القدس)، مستعينة بسياق توراتي يوظف الكناية لإدانة التحول القيمي، كما تظهر الكناية في استخدام "القرميد" و"السنونو" للإشارة إلى الحياة البسيطة المسلوبة، كما تُستخدم مفردات مثل "الأرض" و"اللاجئين" و"النكبة" كَكُنى محمّلة بدلالات وطنية وتاريخية وثقافية تعمق المعنى دون تصريح مباشر.

هذه الصور وغيرها تبرهن على أن البلاغة، بوصفها فنًّا لإنتاج الدلالة والجمال والتأثير، ما تزال حاضرة بفاعلية في الشعر الحديث، وقد استطاع سميح القاسم أن يوظّفها بوعي حداثي يجمع بين التراث والواقع، بين القديم والمستجد، في تجسيد حيّ لديمومة البلاغة ومرونتها التعبيرية.

-التوازي الإيقاعي: بناء الجمل بتناغم صوتي يحاكي السجع:

في قصيدة "مزامير" لسميح القاسم، تتجلى مظاهر ديمومة البلاغة العربية وحيويتها من خلال حضور الأدوات البلاغية الكلاسيكية، وخصوصًا التوازي الإيقاعي الذي يحاكي السجع ويضفي على النص إيقاعًا صوتيًّا قويًّا، يخدم الوظيفة التعبيرية والاحتجاجية للقصيدة.

ويُلاحظ أن القصيدة تبني جملها وفق نمط من التوازي الإيقاعي، فنجد، تكرارًا في البنية النحوية:

"من هنا

من مطهر الأحزان في ليل الجريمة

من هنا من غزة الموت،

ومن جنين، والقدسِ القديمة"[32]

ونجد توازيًا في الجمل المعترضة والدعائية: **"يا إله المجد .. جُرّبنا طويلاً .. فأعدنا"**

يا إله الانتقام

---

[30] ديوان سميح القاسم:195

[31] ديوان سميح القاسم: 198

[32] ديوان سميح القاسم:194

يا إله الانتقام اظهرْ .. وردَّ الخيلاء!" [33]

وسجعًا واضحًا يُقارب لغة المزامير التوراتية لكنه يقلب قدسيتها إلى هجاء سياسي، مثل:

"واعبدوا أصنام واشنطن، قوموا واعبدوها
خالطوا أوثان بونّ القاتلة"[34]
"رد من يذبح في القدس اليتامى
والثكالى والأيامى"[35]

ولفظة "هللويا" المتكررة تعمل بوظيفة فنية موسيقية، وهي بنية سجع قائم بذاته تعيد التماسك النصي، **كما أنَّ** التماثل الصوتي والتوازي البلاغي ليس مجرد زينة، بل يسهم في إبراز التهكم من الرموز الدينية والسياسية، وتحويل النص الديني (المزمور) إلى أداة مقاومة ونقد سياسي، وخلق إيقاع جماعي شعبي يشبه التراتيل، مما يعزز النبرة الاحتجاجية ويقرب النص من الجمهور.

إنَّ القصيدة تستعير جماليات الأسلوب الكلاسيكي، لكنَّها توظفها داخل خطاب معاصر، من خلال:

- نداءات تشبه الدعاء: "يا إله المجد"، "يا إشعياء"
- استخدام الصور البلاغية الكثيفة: "نارًا.. وغازًا.. ودخانًا"
- تكرار الخاتمة بعبارة "هللويا" بشكل طقوسي.

وبالتالي فإنَّ حضور التوازي الإيقاعي والسجع في "مزامير" يعكس امتداد البلاغة العربية عبر الزمن، ويؤكد قدرتها على التكيف مع القضايا المعاصرة والهموم السياسية، وسميح القاسم يوظف هذا الموروث البلاغي ليعيد تشكيل خطاب ديني إلى أداة فنية احتجاجية ذات إيقاع هادر ووقع عاطفي عميق.

-الاقتباسات والأساليب ذات الطابع التقريري القرآني والتاريخي:

تقدم قصيدة "مزامير" لسميح القاسم نموذجًا حيًّا لديمومة البلاغة العربية وقدرتها على التجدد، من خلال استثمار أدواتها الكلاسيكية بأساليب معاصرة، فيأتي حضور الأسلوب التقريري والاقتباسي من النصوص الدينية، إلى جانب التوازي الإيقاعي والسجع، ليؤكد كيف يمكن للبلاغة أن تكون أداة مقاومة واحتجاج، لا مجرد تزيين لغوي.

أ-الاقتباس والتناص مع المزامير والكتاب المقدس:

---

[33] ديوان سميح القاسم:196

[34] ديوان سميح القاسم:193

[35] ديوان سميح القاسم:197

العنوان نفسه "مزامير" يحيل إلى سفر المزامير التوراتي، لكنه يوظف التناص بأسلوب ساخر/ساخط، من ذلك استخدام صيغة الدعاء والابتهال:

"يا إله المجد .. جُرّبنا طويلاً .. فأعدنا"

"يا إله الانتقام اظهرْ .. وردّ الخيلاء"[36]

هذه الصيغ تحاكي نبرة المزامير التوراتية والابتهالات النبوية، لكنها تُقلب دلاليًا إلى خطاب احتجاج على الجرائم الإسرائيلية، على نحو يتّسق والفضاء التوراتي الديني الذي يستقي منهم الصهاينة مشروعية وجودهم التاريخية الزائفة.

ب-**أساليب ذات طابع تقريري إسلامي:**

يُوظّف الشاعر بنى أسلوبية بطريقة تقريريّة/وعظيّة ذات نغمة عالية وقاطعة، مثل:

التكرار بأسلوب بلاغي: **"راجعون .. راجعون .. راجعون!"** [37]

وهو تكرار يذكرنا بالأساليب الحماسية في خطب الأنبياء أو معارك النبوة، واستخدام أسلوب كلامي يشابه الأسلوب القرآني: **" ثمَّ يُقضى في الأمم**

دون أن يُزهق حق

دون أن يُكتم فم" [38]

وهذا الشكل يذكّرنا بالآيات التي تبشر وتُنذر في آنٍ، بأسلوب قرآني واضح.

ج- الإحالة إلى شخصيات دينية وتاريخية:

مثل: (إشعياء، آل هارون، آل إسرائيل، يهوذا) **والتي** يحولها الشاعر إلى رموز نقدية، في تقاطع بين الرمز التاريخي والدلالة المعاصرة.

" نحن أحفاد إشعياء نناديه .. غضابًا مجهشين" [39]

هذا ينقل المتلقي من زمن النبوة إلى الحاضر الفلسطيني، ويعزز الامتداد التاريخي للمعاناة والمقاومة، وإنَّ توظيف النبرة الدينية/النبويّة يجعل البلاغة قادرة على إحياء الماضي لتفسير الحاضر، وهذا يثبت أنَّ البلاغة العربية ليست جامدة، بل تتماهى مع الأساليب التقريرية في النصوص الكبرى (كالقرآن والكتاب المقدس) لخلق خطاب شعري حديث، كما يُظهر التناص مع النصوص الدينية والتاريخية أنَّ البلاغة العربية تجدد نفسها بالتفاعل مع الخطابات الأخرى، دون أن تفقد هويتها، وهذا التناص ليس نقلاً حرفيًا، بل إعادة توظيف بلاغي يخدم رؤيا الشاعر، والأسلوب التقريري في قصيدة الشاعر (الذي يُظن أنه ضد الشعرية) يتحول هنا إلى رافعة شعرية بلاغية عبر التكرار والإيقاع والحمولة الدلالية الثقيلة.

إنَّ هذا التفاعل بين الشكل البلاغي القديم والسياق المعاصر يُظهر كيف أنَّ البلاغة العربية ليست ثابتة، بل قادرة على التكيّف والتحوّل، وعلى إعادة تشكيل أدواتها لخدمة أغراض جديدة.

---

[36]() ديوان سميح القاسم:196

[37]() ديوان سميح القاسم: 195

[38]() ديوان سميح القاسم:200

[39]() ديوان سميح القاسم: 198

ففي "مزامير"، تخرج البلاغة من حدود التزيين إلى ميدان الفعل، ومن دائرة الماضي إلى فضاء الحاضر، لتؤكد حضورها المستمر كأداة تعبير ومقاومة، مشحونة بثقل التراث وحيوية اللحظة.

2. تطويع الأدوات البلاغية الحديثة:

لا تقتصر ديمومة البلاغة العربية على حضور أدواتها الكلاسيكية، بل تتجلى أيضًا في قدرتها على استيعاب الأساليب البلاغية الحديثة وتطويعها في التعبير عن قضايا الواقع الراهن، وفي قصيدة "مزامير"، يبرز سميح القاسم مثالًا بارعًا على هذا التوظيف الحداثي، من خلال إدخال تقنيات بلاغية معاصرة مثل بلاغة المفارقة والتضاد والتناص الثقافي وكسر التوقع، ليمنح النص كثافة دلالية وقوة تأثيرية تجعل البلاغة أداة مقاومة متجددة.

- **بلاغة المفارقة:**

تعتمد القصيدة على مفارقة ساخرة تحوّل الرموز الدينية إلى أدوات إدانة للواقع السياسي، وتُظهر التناقض بين قدسية اللغة وفساد السلوك. يظهر ذلك في المزمور الأول، حين يقول:

"اعبدوا أصنام واشنطن، قوموا واعبدوها
واجعلوا أبناءكم قربان آي. بي. سي.
وفي القلب احفظوها .. باسمها .. دكوا البيوت الآهله" [40]

فالمفارقة هنا تقوم على قلبٍ صريح للوظيفة الدينية (العبادة، القربان، الدعاء) وتوجيهها نحو رموز الهيمنة الغربية، في تلاعب ساخر يفضح خطاب التطبيع والخضوع، ويكشف زيف التدين الموجّه سياسيًا.

والمفارقة تتعاظم حين يُستخدم لفظ **"هللويا"** ـــ رمز التهليل والقداسة ـــ ليختم مقاطع مليئة بالمجازر والحزن والموت، كما في: **"يا إله المجد!**

جُرِّبنا طويلًا .. فأعدنا ..
هللويا هللويا
"يا إله الانتقام .." [41]

فالمفارقة بين الشكل التعبدي والمضمون الدامي تخلق صدمة بلاغية تفضح تناقض الواقع السياسي والديني.

- **بلاغة التضاد والتناص الثقافي:**

تقوم القصيدة على تناص واضح مع المزامير التوراتية، لكنّ هذا التناص ليس تكرارًا، بل تضادًا، يستدعي الشاعر رموزًا دينية (إشعياء، يهوذا، آل هارون، أورشليم) ثم يُعيد توظيفها في سياق ساخر نقدي، يكشف كيف تم تشويه الخطاب الديني لخدمة العنف:

---

[40] () ديوان سميح القاسم: 193

[41] () ديوان سميح القاسم:196

" يا إشعياء، الذي أغفى قرونًا وقرون!
كيف يقضون بعسفٍ لليتيم؟
وكيف لا تُبلغهم دعوى الأرامل؟
يا إشعياء الحزين،
فانهض اليوم وصحْ في قريةٍ
تهوي على سفح المهالك!" [42]

في هذه السطور، يُستنطق النص المقدس ليُدين أصحابه، ويتحوّل الرمز الديني إلى شاهد على الانحراف، فيضخّ التناص طاقة بلاغية قائمة على التضاد القيمي والثقافي.

- **بلاغة التكسير والخرق:**

من أبرز مظاهر الحداثة البلاغية في القصيدة ما يمكن تسميته بـبلاغة الخرق، حيث يُفاجأ القارئ بصور غير مألوفة، تكسر الإطار المتوقع للبيان، وتزعزع أفق التلقي. مثلًا:

"كان يا ما كان،
وانقضّت نسورٌ معدنيه
لم تكن حاملةً من آل صهيون – إلى صهيون –
أفواج البقيه.
لم تكن حاملةً لحائط المبكى .. مزامير تقيه.
يا إله المجد .. ماذا حملت؟
ناراً .. وغازاً .. ودخانا
ومجاعات .. وصلبانًا .. ويتمًا .. وهوانا !! "[43]

وهنا ينقلب الأسلوب الحكائي المتوقع (كان يا ما كان) إلى مشهد دموي مرعب، ويُستبدل المشهد الديني بالصور الحربية، في كسر صارخ لتوقعات القارئ، وكذلك تكرار الدعاء بـ"يا إله المجد"، المتوقع أن يكون رجاءً، يأتي محمّلاً بالاتهام والسخط، ما يعمّق التوتر البلاغي، فمن خلال هذه البلاغات الحديثة (المفارقة، التناص، التكسير) يبرهن سميح القاسم أنَّ البلاغة ليست إطارًا شكليًا موروثًا، بل أداة إبداعية قابلة للتحوّل والتجدد بحسب مقتضيات السياق. والشاعر يُبقي البلاغة العربية حيّة، حين يُسكنها روح العصر، ويجعل منها سلاحًا لمساءلة التاريخ، وكشف الزيف، وبثّ الوعي.

3. تفاعل الخطاب مع المتلقي:

يمثل البعد التواصلي في قصيدة مزامير محورًا مهمًا في ديمومة البلاغة وحيويتها، إذ تتجاوز القصيدة حدود التعبير الذاتي لتتوجّه إلى المتلقي بأساليب خطابية مباشرة، تُشركه وجدانيًا وفكريًا في النص، ويوظف الشاعر أدوات بلاغية مثل التكرار، الاستفهام، والنداء من

---

[42] () ديوان سميح القاسم:198

[43] () ديوان سميح القاسم:195-196

أجل خلق صلة حيّة بالقارئ أو المستمع، وتأكيد الطابع الجماعي للنص، وهو ما يمنح القصيدة طابعًا تعبويًا ينتمي إلى فضاء المقاومة والاحتجاج الشعبي.

- **النداء كوسيلة للتواصل والتحريض:**

فكثافة استخدام النداء في القصيدة تمنحها طابعًا خطابيًا مباشرًا، يُحاكي الخطب العامة والصلوات الجماعية، مثل:

"يا إله المجد .. جُرِّبنا طويلًا .. فأعدنا"[44]

"يا إشعياء، الذي أغفى قرونًا وقرون!" [45]

"يا إله الانتقام، اظهرْ وردَّ الخيلاء!" [46]

هذه النداءات تخاطب رموزًا دينية، لكنها في الحقيقة موجهة إلى المتلقي، وتُحمّله شحنة وجدانية عالية تحثّه على اليقظة والتساؤل والانفعال. فالخطاب يبدو دينيًّا، لكنه سياسيّ في عمقه، يفضح الخذلان ويستنهض الضمير الجمعي.

- **الاستفهام ودوره في إثارة الانتباه وبناء التوتر:**

يستخدم الشاعر الاستفهام ليس للبحث عن إجابة، بل لخلق مفارقة بلاغية وتحدي وعي المتلقي:

"كيف لا يسمع من كوّن سمعًا للبشر؟

كيف لا يبصر، من سوّى البصر؟

كيف يقضون بعسفٍ لليتيم؟

كيف لا تُبلِغهم دعوى الأرامل؟" [47]

الأسئلة هنا تُدين بالصمت، وتُحيل القارئ إلى موقف أخلاقي، حيث يصبح السؤال مرآة للمسؤولية والتقصير. وبهذا الأسلوب، يتجاوز الخطاب حدود التقريرية، ليصبح تفاعليًا، يشرك المتلقي في المساءلة.

- **التكرار ودوره في تعميق الأثر وتحويل الصوت الفردي إلى جمعي:**

يلعب التكرار دورًا بنائيًا وجماليًا، لكنه في هذه القصيدة يأخذ وظيفة بلاغية جماهيرية، تُعزز من التلاحم بين الشاعر وجمهوره. مثال على ذلك: **"راجعون .. راجعون .. راجعون!"** [48]

"هللويا .. هللويا .. هللويا!" [49]

"يا إله المجد .. جُرِّبنا طويلًا .. فأعدنا"[50]

---

[44] ديوان سميح القاسم:196

[45] ديوان سميح القاسم:198

[46] ديوان سميح القاسم:196

[47] ديوان سميح القاسم:197

[48] ديوان سميح القاسم:195

[49] ديوان سميح القاسم:201

[50] ديوان سميح القاسم:196

فالتكرار هنا ليس زخرفًا، بل وسيلة للترسيخ والتثبيت والتأثير الجمعي، يُذكّرنا بالأناشيد الجماعية والهتافات في لحظات النكبة والمقاومة. وهكذا يتحول النص إلى صوت جمعي يتكلم بلسان الناس لا بلسان شاعر مفرد.

- **التحول من "أنا" إلى "نحن":**

يتحدث النص غالبًا بضمير الجمع، كما في:

"نحن أحفاد إشعياء
نحن جُرّبنا طويلًا .. فأعدنا
يا إشعياء، فانهض اليوم ..
لكي يلعب أطفال فلسطين" [51]

وهذا الانتقال من "الأنا" إلى "النحن" هو انتقال بلاغي يرسّخ الوظيفة الجماهيرية للقصيدة، ويمنح النص قوة تمثيلية تتجاوز التجربة الفردية إلى الهمّ الجماعي، وهو ما يعزّز وظيفة البلاغة كوسيط شعبي حيّ بين التجربة والفعل.

وبالتالي من خلال أدوات النداء والاستفهام والتكرار، يبني الشاعر خطابًا تفاعليًا، يجعل القارئ جزءًا من التجربة، لا مجرد متلقٍ سلبي، وتحوّل القصيدة إلى صوت جماعي يمنحها طاقة حيوية تُثبت أن البلاغة العربية لا تزال صالحة لتأدية وظيفة تواصلية عالية التأثير، تواكب العصر وتلبي حاجات الوجدان الجمعي في لحظات الانكسار والنهوض.

رابعًا: تجليات البلاغة بوصفها موقفاً:

في قصيدة مزامير، تتجاوز البلاغة حدود كونها أدوات تعبيرية أو زخرفية، لتتحوّل إلى موقف وجودي وسياسي وأخلاقي، فالشاعر لا يستخدم البلاغة لتجميل الواقع أو للتأمل الجمالي الخالص، بل لفضح القبح، والانتصار للمظلوم، وإعادة كتابة المصير الفلسطيني والعربي بلغة مشحونة بالغضب والوعي والتاريخ.

وهكذا تتجلى البلاغة في القصيدة بوصفها مقاومة بالكلمة، وتشبثًا بالهوية في وجه الطمس والاستلاب.

- **البلاغة كأداة مقاومة لا محايدة:**

تسير القصيدة على إيقاع المواجهة، حيث اللغة نفسها تتحوّل إلى ميدان صراع، والعبارات التي تحمل طابعًا توراتيًا أو دينيًا تُستعاد لتُستنطق ضد أصلها:

"اعبدوا أصنام واشنطن، قوموا واعبدوها!"
"واجعلوا أبناءكم قربان آي. بي. سي." [52]

---

[51] ديوان سميح القاسم:198

[52] ديوان سميح القاسم:193

فهنا لا تُستخدم البلاغة لتجميل أو تأريخ الألم فقط، بل لمقاومة رموزه، عبر تفكيك خطابه وإعادة بنائه على نحو ساخر ولاهب، يُدين السلطة والاستعمار والخيانة بلغة ذات عمق شعري، لكنها موجهة وواعية.

- **اللغة بوصفها ذاكرة وهوية:**

تنبع قوة القصيدة من كونها تؤسس من خلال اللغة لخطاب ثقافي مقاوم، فاستدعاء إشعياء، والمزامير، والرموز الدينية لا يُقصد به التقديس، بل إعادة تأويل التراث في ضوء النكبة والاحتلال. بهذا المعنى، تصبح اللغة حاملة للذاكرة الجماعية، تحفظ ما يُراد محوه، وتُعيد بناء الذات:

" نحن أحفاد إشعياءَ، نناديه .. غضابًا مجهشين
كان في القرميد أعشاشٌ، وفي الأفق سنونو
كان في المنفى قلوب وعيون" [53]

فاللغة هنا تسجّل الماضي، وتربط الفلسطيني بجذوره، وترفض رواية العدو القائمة على الإنكار والتشويه.

- **البلاغة موقف أخلاقي:**

السؤال البلاغي في القصيدة لا يُطرح ببرود، بل بغضب مشحون بالأخلاق:

" كيف لا يسمع من كوّن سمعًا للبشر؟
كيف لا يبصر، من سوّى البصر؟" [54]

البلاغة تتحوّل إلى محكمة رمزية، يُستدعى فيها الإله والنبي والضمير العالمي، لا بهدف الخطابة، بل بغرض المحاسبة وكشف التناقض. وهذا ما يمنح الخطاب قوة وجدانية وأخلاقية نابعة من بلاغته لا من سلطته.

- **البلاغة والهوية:**

إن استخدام الشاعر للموروث البلاغي والديني العربي، إلى جانب استحضار الرموز التوراتية، يدخل في صراع رمزي حول الهوية، فبين "تل أبيب" و"القدس القديمة"، و"يهوذا" و"أحفاد إشعياء"، تُستخدم البلاغة لإثبات الحق التاريخي والثقافي في وجه السردية الاستعمارية الصهونية، وبذلك يصبح النص ساحة مقاومة لا تُحرَّر بالسلاح فقط، بل بالكلمة.

- **ترسيخ الرسالة من خلال البناء البلاغي:**

القصيدة ليست فقط سردًا أو وصفًا للمأساة، بل هي خطاب شعريٌّ بُني على أسس بلاغية تُعزز الرسالة السياسية والأخلاقية للنص، فالتكرار والنداء والسجع والتوازي، إلى جانب المفارقة والخرق، كلها عناصر ساعدت في تثبيت العبارات في الذاكرة مثل:

"يا إله المجد.. جُرِّبنا طويلًا.. فأعدنا[55]

---

[53] ديوان سميح القاسم:198

[54] ديوان سميح القاسم:197

[55] ديوان سميح القاسم:196

هللويا.. هللويا.. هللويا!" [56]

فهذه التكرارات تُؤسس طقوسًا لغوية أشبه بالترانيم الجماعية، مما يمنح النص قابلية للترديد الجماهيري ويجعله راسخًا في الذهن، كما أنَّ توليد إيقاع تعبوي يشبه النشيد أو الهتاف، يجعل القصيدة قابلة للتداول الجماعي، ويحولها إلى خطاب مقاومة لا مجرد تجربة شعرية نخبوية.

- **البلاغة كوعاء للذاكرة الجمعية:**

من خلال الاشتغال على التناص الديني والتاريخي، والرموز الجماعية (اللاجئون، غزة، القدس، أطفال فلسطين)، تعمل البلاغة على إعادة تشكيل الذاكرة الجمعية وربطها بنسق لغوي قوي ومشحون، كما في:

"ذات يومٍ كان في غزة صبر وحنين

وفلول من أناس طيبين

يا إشعياء، فانهض اليوم لكي يلعب أطفال فلسطين" [57]

هذه الصور البلاغية لا تصف الماضي فقط، بل تُعيد إنتاجه رمزيًا، وتجعل القصيدة مستودعًا للحنين والوجع والكرامة، مما يمنحها وظيفة حفظ الذاكرة الجماعية.

- **البلاغة كأداة لحفظ النص حيًّا:**

بفضل البنية البلاغية، يبقى النص قادرًا على البقاء في التداول الثقافي، لأنه:

- قابل للتكرار الجماهيري بسبب إيقاعه وتوازيه، مما يسهم في بقائه حيًّا في الخطاب العام.
- مرتبط بالسياق السياسي المتجدد، مما يجعل كل جيل قادرًا على إعادة قراءته وتفعيله.
- مشحون بالعاطفة والرموز، مما يسمح له بالانغراس في المشاعر الشعبية، لا فقط في الوعي النقدي.

- **استمرار فاعلية النص عبر الزمن:**

البلاغة في قصيدة "مزامير" لم تخدم لحظة آنية فقط، بل ساهمت في تحويل النص إلى خطابٍ متجاوزٍ للزمن، لأن بنيته قائمة على الرموز الكونية (العدل، الانتقام، النداء الإلهي، العودة، الطفولة، النار، الصليب)، وهي رموز تحتفظ بفاعليتها في أي سياق مشابه.

وبالتالي يمكن القول إنَّ الأدوات البلاغية لعبت دورًا جوهريًا في جعل مزامير نصًا فعالًا، حيًّا، لا يُقرأ فقط، بل يُتذكّر، ويُردَّد، ويُستعاد في السياق السياسي والثقافي العربي. إنها بلاغة تتجاوز الزخرفة إلى بناء خطاب مقاوم يعيش في الذاكرة، ويثبت أن البلاغة حين تكون صادقة وواعية تحفظ النص حيًّا في قلوب الناس وعقولهم.

خامسًا: الخاتمة والنتائج:

إن البلاغة العربية، كما تجلّت في قصيدة مزامير لسميح القاسم، لم تعد مجرد أدوات فنية جامدة، بل أضحت ممارسة خطابية حيوية تؤدي دورًا مركزيًا في تشكيل الوعي وإعادة إنتاج

---

[56] ديوان سميح القاسم:201

[57] ديوان سميح القاسم:194

المعنى داخل السياق الثقافي والسياسي المعاصر، وقد أظهرت هذه الدراسة أن ديمومة البلاغة لا تعني استنساخ أشكالها التقليدية، بل تعني استمرار فاعليتها في التأثير والإقناع، من خلال قدرتها على التجدد والتكيّف مع تحولات الخطاب والوسائط.

لقد بيّنت قصيدة مزامير كيف تتشابك البلاغة بوصفها تراثًا لغويًا مع الموقف الإنساني والوطني، وكيف تتآزر الأدوات الكلاسيكية والحديثة في بناء خطاب شعري يمزج بين الجمالية والمقاومة، وبين الرمز والتاريخ. وبهذا تتجلى البلاغة في شعر القاسم لا كحلية لغوية، بل كقوة حجاجية وتعبوية تعبّر عن همّ جماعي وتجربة وجودية عميقة.

وقد أسفرت الدراسة عن النتائج التالية:

1. بحسب آراء النقّاد، فإنّ القولَ بـ"موت البلاغة" يصف جمود البلاغة التقليدية وعجزها عن مواكبة النصوص الحديثة، لكنّ البحث أثبت حيويّتها.
2. أبرز أسباب الدعوة لموت البلاغة التقليدية تتمثل في انحسارها إلى الزخرفة اللفظية، وتحوّلها إلى تلقين، وعجزها عن تحليل الجماليات الجديدة، إضافة إلى مزاحمة علوم نقدية حديثة لها.
3. المواقف النقدية تنوعت بين مؤيد للفكرة، ومعارض يؤكد قدرتها على التكيف، ومجدد يسعى لإعادة بنائها.
4. البلاغة ما زالت تزدهر عالميًا وعربيًا، ما يجعل "موتها" دعوة للتجديد لا إعلانًا للنهاية.
5. أظهرت قصيدة مزامير حضورًا بلاغيًا متعدد الطبقات، يجمع بين الأدوات التقليدية كالسجع والاستعارة والتوازي، وبين تقنيات حداثية كالمفارقة والتناص والتكسير الدلالي.
6. البلاغة في النص ليست غاية جمالية فقط، بل أداة فكرية وموقف نقدي يتجاوز حدود اللغة ليعبر عن معاناة الإنسان الفلسطيني وتطلعاته.
7. أكدت الدراسة أن ديمومة البلاغة تتمثل في قدرتها على التكيف مع السياقات الجديدة، واكتساب وظائف جديدة دون التفريط بجوهرها الإقناعي والتأثيري.
8. تحوّل المرجع الديني (المزامير التوراتية) في القصيدة إلى أداة مقاومة، ما يكشف عن طاقة البلاغة في إعادة تأويل الرموز وتحويلها إلى أدوات للصراع الثقافي والسياسي.
9. تبرز في شعر القاسم وظيفة البلاغة بوصفها تجسيدًا للهوية الجماعية، إذ يتحدث النص باسم الجماعة، ويستثمر البنية الندائية والتكرارية للتواصل الحي مع المتلقي.
10. تُعد قصيدة مزامير مثالًا حيًّا على بلاغة معاصرة حيّة، تستحق أن تُقرأ ضمن أفق بلاغي متجدد يأخذ بعين الاعتبار التحولات الجمالية والمعرفية للخطاب الشعري.
11. كشفت القصيدة عن أنَّ البلاغة الحديثة في خطاب القاسم تُمارَس بوصفها خرقًا للأنماط المألوفة، إذ تُفاجئ المتلقي بصور غير متوقعة، مما يعزز من التلقي التفاعلي للنص.
12. اعتمد الشاعر على البنية التناصّية ليس فقط بوصفها ترفًا ثقافيًا، بل كاستراتيجية بلاغية تفكك الخطابات الدينية والسياسية وتعيد تركيبها ضمن منظور مقاوم.

13. أظهرت الدراسة أن ديمومة البلاغة لا تنفصل عن وعي الشاعر بوظيفة اللغة؛ فالقاسم يُحيل البلاغة إلى فضاء تعبيري مكثّف يتجاوز حدود البيان إلى مجال الفعل.
14. أكدت الدراسة أنَّ البلاغة في قصيدة مزامير لا تنفصل عن الذاكرة الجماعية، بل تستدعيها وتُعيد تشكيلها، مما يمنح النص قدرة على الاستمرارية في الوجدان الثقافي الفلسطيني والعربي.
15. وظّف الشاعر التكرار والاستفهام والنداء كأدوات بلاغية لبناء حوارية متوترة مع المتلقي، تتداخل فيها الذاتي بالجمعي، والرمزي بالواقعي.
16. كشفت الدراسة عن أن البلاغة عند القاسم تمارس دورًا تقويضيًا للخطاب الاستعماري من الداخل، عبر تقنيات المفارقة والسخرية والتضاد، ما يجعلها جزءًا من مشروع تحرري شامل.

هذا ...

وما كان من توفيق فمن الله وحده الذي يسر وأعان، وأتمَّ نعمته، وما كان من تقصير فمن نفسي، وإنَّ النفس لأمارة بالسوء، ومن الشيطان، وإنَّ الشيطان لعدو مبين...

والحمد لله أولًا وآخرًا.

سادساً: المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- امتدادات البلاغة الجديدة في النقد المغاربي "البلاغة والحجاج عند حمادي صمود أنموذجًا"، سونة حسين، وسليم سعدلي، مجلة البدر، مج10، ع8، 2018م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، 1992م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990م.
- الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997م.
- بلاغة النص، جميل حمداوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2011م.
- بلاغة الصورة الشعرية الحديثة، عبد الله العمري، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، عدد27، 2008م.
- البلاغة العربية والتداولية الغربية بين الثابت والمتغير "دراسة بلاغية نقدية"، شحاتة عبد الرزاق أبوشوشة، المؤتمر العلمي الدولي الخامس (مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)، جامعة الأزهر، مصر، 2023م.
- الديمومة في العمل الفني، طارق الشريف، مجلة الحياة التشكيلية، دمشق، ع41، 1992م.
- ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، 1987م.
- مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيجلتون، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991م.

- البلاغة العربية الجديدة، مسارات ومقاربات، عماد عبد اللطيف، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط2، 2021م.
- Sutton, J. (1986). The Death of Rhetoric and its Rebirth in Philosophy. Rhitorica: A Journal if the Histiry if Rhitoric, Vol. 4, No. 3.
- Eagleton, T. (2012). The Death if Rhetiric. Acad. Quest. 25: 546-551.
- Stuart C. B, R. Jaskson & T. Enos. (2000). The Arrival of Rhetiric in the Twenty – first Century: The 1999 Survy of Doctoral Programs in Rhetiric, Rhetoric 18:2, 233, Review-242, w235.